

المطرب من أشعار أهل المغرب

لابن دحية

ذى النسيب أبي الخطاب عمر بن حسن

المتوفى سنة ٦٣٣ هـ

بتحقيق

الدكتور حامد عبد المجيد

وكيل إدارة نشر التراث القديم

الأستاذ إبراهيم الأبياري

مدير إدارة نشر التراث القديم

الدكتور أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم

راجعه

الدكتور طه حسين

دار العلم للمنتدى

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

١٤٨٠

١٥٦ / ٥٩٢١

١٤٨٠
٨

المظرب من أشعار أهل المغرب

لابن دحية

ذى النسيين أبي الخطاب عمر بن حسن

المتوفى سنة ٦٣٣ هـ

١١١٦

٨٦٤

بتحقيق

الدكتور حامد عبد المجيد

وكيل إدارة نشر التراث القديم

الأستاذ إبراهيم الأبياري

مدير إدارة نشر التراث القديم

الدكتور أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم



راجعه

الدكتور طه حسين

دار العلم للمجميع

شارع سُورِيا - بناية صمدي وصاحبة

هاتف ٢٤٨٠٢٦ - ص.ب ٩٠٤٨

الإهداء

هذا كتاب يعنى أمتين : العرب والأسبان ، إذ هو يعرض حقبة مشتركة من تاريخهما .

وكم وددنا لو نقلناه إلى اللغة الأسبانية ، ولكن الأسباب لم تُسعف ، فلا أقل من أن نُهديه إلى الأمة الأسبانية عن الأمة العربية ، توثيقاً لصللة قديمة ، وتمكيناً لثقافة نحن وإياهم فيها قسيان .

إبراهيم الابيارى



تعريف بالمؤلف والكتاب

بقلم

ابراهيم الايبارى

الى ذلك التراث الخالد الذى نرجوله بعنا وشيكاً يلم شعنه ، ويرمُ مُرْتَه ،
ونحفظ فيه للأبناء موروث الآباء ، يفظنهم ويعظمهم ويروّهم : نهدي جهداً
ربما رَدَ النفوس إلى طمأنينة بآنا مُدْرِكُون .

تمهيد :

كان ذلك منذ أعوام نَزرة خلت حين سألتى صديقاى : حامد وأحمد ، أن نتضام
على تحقيق « المطرب » . وكنت بين إيمان بنفع الكتاب حافز ، ورأى بآتداع
الخطيات الفردة صارف . فما أكثر ما يستهدف المعنى بها . ولكن سرعان ما غلب
الإيمانُ الرأى ، ووجدنا فى مشاركة المؤلف غيره ، أخذنا وإعطاء ، ما يعوضنا هوناً ما
عما نفقده للأصل من أشباه .

وصرف الدهر فإذا أنا بمنأى عن الزميلين بعيد ، وإذا الشقة الفاصلة ، دونها
تبادلُ العون فى يسر وخفة . وتمتد الأيام والكتاب حبيس طبع ، على مُمضّة منا
ومكروهة .

ثم يأذن الله فيتصل ما أنقطع ، ويكتب « للمطرب » أن يظهر بعدما تغيّباه .
وإنها لمعدرة يستوحيا قومٌ من أمر الكتاب على موصولة . فما أوجب العذر
علينا لهم ، وما أحرهم أن يتبينوه .

ابن دحية

نسبه :

هو ذو النسيين - فيما يزعم - أمه - كما يقول ابن خلكان - أمّة الرحمن بنت أبي عبد الله بن أبي البسام موسى بن عبد الله بن الحسين بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر ابن محمد بن علي بن علي بن أبي طالب .
وأما هو ، فعمر بن الحسن بن علي بن محمد بن الجميل^(١) بن قرح^(٢) بن خلف ابن قومس^(٣) بن مزلال^(٤) بن ملال^(٥) بن بدر بن أحمد بن دحية^(٦) بن خليفة ابن فروة الكلبي الأندلسي البلبنسي الداني . وكان يكنى أبا الخطاب ، وأبا الفضل ، وأبا حفص ، وأبا علي .

وهكذا يجعل نسبه إلى «دحية» الصحابي المعروف ، شبيه جبريل عليه السلام ، وكان ينزل في صورته . كما يرفع نسبه من أمه إلى الحسين عليه السلام ، فوالدة «الجميل» هي ابنة الشريف أبي البسام العلوي الحسني ، كما ترى .

وإلى هذا يشير ابن دحية في عينته التي مدح بها السلطان الكامل :
بقيت لعبد جدّه دحية الذي يُشابه جبريل له ويضارع
وجده الزهراء بنت محمد عليه السلام الدائم المتتابع

(١) بضم الجيم وفتح الميم وتشديد اليا ، تصغير «جمل» .

(٢) بفتح الفاء وسكون الراء .

(٣) بضم القاف وفتحها وسكون الواو وكسر الميم .

(٤) بفتح الميم وسكون الزاي .

(٥) بفتح الميم وتشديد اللام ألف .

(٦) بفتح الدال المهملة وكسرها وسكون الخاء .

والمؤرخون يكادون يُجمعون على بطلان نسبته إلى « دحية » ، فالعماد الحنبلي في «شذرات الذهب» . حين ترجم له يقول : «ودخل دمشق فقال إليه الوزير أبو بكر ، فسأله أن يجمع بينه وبين الشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكندي . فاجتمعا وتناظرا وجرى بينهما البحث ، فقال له الكندي : أخطأت ! فسفه عليه . فقال الكندي : أنت تكذب في نسبك إلى دحية الكلبى ، ودحية بإجماع المحدثين ما أعقب ، وقد قال فيك ابن عنين : (١) .

دحية لم يُعقب فكم تنتمى إليه بالبهتان والإفك
ما صحَّ عند الناس فيه سوى أنك من كلب بلا شك

والذهبي في «تذكرة الحفاظ» حين ينقل هذه النسبة ، يُعقب عليها بما يفيد تشككه فيها ، فيقول : « يذكر أنه من ولد دحية الكلبى ، وأنه سبط أبي البسام » (٢) .

ولا يبعد قول ابن الأبار عن هذا .

ويقول ابن حجر العسقلانى فى «لسان الميزان» بعدما ساق نسبه : «فهذا نسب باطل بوجه :

أحدها : أن دحية لم يُعقب .

الثانى : أن على هؤلاء لوائح البربرية .

وثالثها : بتقدير وجود ذلك ، قد سقط منه آباء ، فلا يمكن أن يكون بينه وبينه عشرة أنفس » .

(١) هو شرف الدين أبو الحسن محمد بن نصر الأنصارى الدمشقى ، ولد سنة ٥٤٩ هـ . وكانت وفاته سنة ٦٣٠ هـ

ولا ديوان مطبوع بتحقيق خليل مردم بك .

(٢) الذى فى التذكرة : «أبى البشام» .

ويعود الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » بعد أن ذكر هذا النسب السابق جملةً ،
 فيقول : « هكذا ساق نسبه ، وما أبعد من الصحة والاتصال ، وكان يكتب لنفسه :
 ذو النسبتين ، بين دحية والحسين » .

ويقول : « ونسبه شىء للاحقيقة له ، قرأت بخط ابن مسدى : كان أبوه تاجراً
 يُعرف بالكابى ، بين الفاء والباء ، وهو اسم موضع بدائية » .

ويقول ابن مسدى أيضاً : « رأيت الحدائق من علماء المغرب لا يزيدون على
 ذكر جدهم « فرح » إلا التعريف بنى الجميل . وقد كان أخوه أبو عمرو عثمان
 يلقب بالجميل بن الجميل » .

ويقول ابن حجر : « والجميل : تصغير للجميل ، بالعبارة المغربية » .

ويقول ابن عبد الملك فى الصلة : « وكان يسمى نفسه ذا النسيين ، وهو مغربى
 من أهل سبتة . وأظنه كان قاضياً » .

وتم شىء يتصل بالحديث عن نسبه ، وهو الحديث عن توثيقه فى روايته .
 فكلاهما يلتقى ضوءاً على الآخر ويعضده . ومن يجوز عليه التخليط فى واحدة يُزَنُّ
 بها ، حرى بالتهمة غير مبرأ منها مع الثانية .

نسمع لسبط ابن الجوزى يقول عنه : « كان فى المحدثين مثل ابن عَنِين
 فى الشعراء ، يقع فى أئمة الدين ، ويزيد فى كلامه ، فترك الناس الرواية عنه وكذبوه .
 وكان الكامل مُقبلاً عليه ، فلما أنكشف حاله أعرض عنه ، وأخذ منه دار
 الحديث وأهانته » .

ويقول ابن واصل : « وكان أبو الخطاب مع فرط معرفته بالحديث متهماً
 بالمجازفة فى النقل ، وبلغ ذلك الملك الكامل ، وقد بنى له دار الحديث بالقاهرة ،

فأمره أن يعلق شيئاً على أحاديث الشَّهاب ، فعَلَّقَ كِتَاباً تَكَلَّمَ فِيهِ عَلَى أَحَادِيثِهِ
وإِسْنَادِهِ ، فَلَمَّا وَقَفَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ عَلَى ذَلِكَ قَالَ لَهُ بَعْدَ حِينٍ : قَدْ ضَاعَ مِنِّي ،
فَعَلَّقْ لِي مِثْلَهُ . ففَعَلَ ، بِنِجَاءٍ فِي الثَّانِي بِمُنَاقِضَةِ الْأَوَّلِ . فَعَلِمَ السُّلْطَانُ صِحَّةَ مَا نُقِلَ
عَنْهُ . وَعَزَلَهُ مِنْ دَارِ الْحَدِيثِ ، ثُمَّ وَلَّى أَخَاهُ أَبَا عَمْرٍو عِثْمَانَ .

وينقل الدبلي أحمد بن علي صاحب « الفلاكة والمفلوكون » : « قال ابن
نقطة : « كان يدعى أشياء لا حقيقة لها . ذكر لي أبو القاسم بن عبد السلام ،
وهو ثقة ، قال : نزل عندنا ابن دحية ، فكان يقول : أنا أحفظ صحيح مسلم
والترمذي ، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذي ومثلها من المسند ومثلها من
الموضوعات ، فجعلتها في جزء ، ثم عرضت عليه حديثاً من الترمذي . فقال :
ليس بصحيح . وآخر فقال : لا أعرفه . ولم يعرف منها شيئاً . فأفسد نفسه
بذلك » .

ويروى ابن خلكان ، وهو ينحدث عن الأسعد بن ممتاى : « وكان الحافظ
أبو الخطاب بن دحية ، المعروف بذي النسيين رحمه الله تعالى ، عند وصوله إلى مدينة
إربل ، ورأى اهتمام سلطانها الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين يعمل مولد
النبي صلى الله عليه وسلم ، صنّف له كتاباً سماه : التنوير في مدح السراج المنير .
وفي آخر الكتاب قصيدة طويلة في مدح مظفر الدين ، أولها :

لولا الوشاة وهم أعداؤنا ما وهوا

وقرأ الكتاب والقصيدة عليه . وسمعنا نحن الكتاب على مظفر الدين في شعبان
سنة ست وعشرين وثمانمائة ، والقصيدة فيه ، ثم بعد ذلك رأيت هذه القصيدة
بعينها في مجموعة منسوبة إلى الأسعد بن ممتاى المذكور ، فقلت : لعل الناقل

غَلَط . ثم بعد ذلك رأيتها في ديوان الأسعد بكها ، مَدَحَ بِهَا السُّلْطَانَ الْكَامِلَ .
فَقَوَى الظن . ثم إنى رأيت أبا البركات بن المُستوفى قد ذكر هذه القصيدة في تاريخ
إربل عند ذكر ابن دحية ، وقال : سألتُه عن معنى قوله فيها :

يَقْدِيهِ مِنْ عَطَا جُمَا دَى كَفُّهُ الْمُحْرَمِ

فما أبحر جوابا ، فقلت : لعله مثل قول بعضهم :

تَسْمَى بِأَسْمَاءِ الشُّهُورِ فَكُفُّهُ جُمَادَى وَمَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْمُحْرَمِ

قال : فتبسّم وقال : هذا أردت . فلما وقفتُ على هذا ترجّح عندى أن
القصيدة للأسعد المذكور ، فإنها لو كانت لأبي الخطاب لما توقّف في الجواب .

ويقول الحافظ الضياء : « لم يُعجبني حاله ، كان كثير الوقيعة في الأئمة » ،
ثم قال : « أخبرني إبراهيم السنهورى أن مشايخ المغرب كتبوا له جرحه وتضعيفه » .

ويقول ابن النجار : « رأيت الناس مُجتمعين على كذبه وضعفه وأدعائه سَمَاعِ
ما لم يسمعه ، ولقاء من لم يلقه ، وكانت أمانة ذلك عليه لائحة . وحدّثني بعضُ
المصريين ، قال : قال لى الحافظ أبو الحسن بن المُفضَّل ، وكان من أئمة الدين ،
قال : كُنَّا بِحَضْرَةِ السُّلْطَانِ فِي مَجْلِسِ عَامِ وَهَنَّاكَ ابْنُ دَحِيَّةَ ، فَسَأَلْنِي السُّلْطَانُ عَنْ
حَدِيثٍ ، فَذَكَرْتُهُ لَهُ . فَقَالَ لِي : مَنْ رَوَاهُ ؟ فَلَمْ يَحْضُرْنِي إِسْنَادُهُ فِي الْحَالِ .
فَأَنْفَصَلْنَا ، فَأَجْتَمَعَ بِي ابْنُ دَحِيَّةَ فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَ لِي : مَا ضَرَّكَ لِمَا سَأَلْتُكَ
السُّلْطَانَ عَنْ إِسْنَادِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ ، لِمَ لَمْ تَذْكُرْ لَهُ أَى إِسْنَادٍ شِئْتَ ، فَإِنْ مَن
حَضَرَ مَجْلِسَهُ لَا يَعْلَمُونَ هَلْ هُوَ صَحِيحٌ أَمْ لَا » .

ويعمى ابن النجار ، فيقول : « وكان صديقنا إبراهيم السنهورى دخل إلى الأندلس . فذكر لمشايخها حال ابن دحية وما يدعيه ، فأنكروا ذلك وأبطلوا لقاءه لهم ، وأنه إنما اشتغل بالطلب أخيراً ، وأن نسبه ليس بصحيح » .

وكتب السنهورى بذلك محضراً ، وأخذ خطوطهم فيه . فعلم ابن دحية بذلك ، فشكاه للسلطان ، فأمر بالقبض عليه ، فضرب وجرس على حمار ، وأُخرج من القاهرة . وأخذ ابن دحية المحضر فخرقه » .

ويحدث أبو العلاء الأصبهاني على بن الحسن ، وهو ما هو جلاله ونبله ، يقول : « لما قدم ابن دحية علينا أصبهان ، نزل على أبي في « الخانقاه » فكان يكرمه ويُبجله ، فدخل على والدى يوماً ومعه سجادة ، فقبلها ووضعها بين يديه ، وقال : صليت على هذه السجادة كذا وكذا ألف ركعة وختمت القرآن في جوف الكعبة مرات . قال : فأخذها والدى وقبلها ، ووضعها على رأسه وقبلها منه مبهجاً بها . فلما كان آخر النهار حضر عندنا رجل من أهل أصبهان ، فتحدث عندنا ، إلى أن اتفق أن قال : كان الفقيه المغربى الذى عندكم اليوم فى السوق اشترى سجادة حسنة بكذا وكذا . فأمر والدى بإحضار السجادة . فقال الرجل : إى والله! هذه فسكت والدى ، وسقط ابن دحية من عنده » .

ويقول ابن كثير : « قد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونسبه بعضهم إلى وضع حديث قصر صلاة المغرب . وكنت أود أن أقف على إسناده ليعلم كيف رجاله . وقد أجمع العلماء — كما ذكره ابن المنذر وغيره — على أن صلاة المغرب لا تقصر .

واتفق أنه وصل في جمادى الأولى سنة ٦١٦ هـ إلى غزة ، ففرج كل من
في غزة بالأسلحة والعصى والمجارة إلى الموضع الذي هو فيه ، وضربوه ضربا
شديدا بعد أن انهزم من كان معه .

وكذلك نجد ابن عبد الملك في الصلة ، وما هو بالمشرق ، يقول في ترجمة
أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد بن حريث : « نسبة أبو الخطاب
ابن الجميل في معجم شيوخه الذي جمعه أبو الخطاب ، فزاد بعد حديث ، فقال :
ابن عاصم بن مضاء بن مهند بن عمير الخمي . فوافقه عليه إلا في ذكر مهند
ابن عمير ، فإنه أنكرهما . فقال له أبو الخطاب : يا سيدي ، هما جدك ذكرهما
فلان . فتوقف الشيخ » .

ويقول ابن عبد الملك : « وهذا السند منقطع لبعده عصر « أحمد » من عصر
« حريث » . فقد ذكر بعض من صنف للناصر بن المطرف عبد الرحمن بن محمد
صاحب الأندلس في سنة ثلاثين وثلثمائة وأخبار المراديين ومن دخل معهم
الأندلس ، جماعة من الخميين ، منهم . النجاشي بن عاصم بن حريث بن عاصم
ابن مضاء بن مهند . فلو صح هذا لكان النجاشي عم جد صاحب الترجمة . وهو
مقطوع ببطلانه في العادة . فلعل ذلك من تركيبات أبي الخطاب » .

هذا هو أبو الخطاب على لسان من تنقصوه ، فكذبوه في نسبه وضعفوه في نقله ،
بل وعابوه بالتدليس ورموه بالكذب ، وساقوا كما رأيت قصصا على لسان موثقين ،
عند الله علمها . وكأنهم كاهن من المشرق ، إلا القليل .

غير أننا نرى ابن جرير الطبري يذكر في حوادث سنة ست وعشرين ومائة ،
قال : « ولما استوثق ليزيد ابن الوليد على الطاعة أهل الشام ، ندب - فيما قيل
لولاية العراق - عبد العزيز بن هارون بن عبد الله بن دحية بن خليفة الكلابي .
فقال له عبد العزيز : لو كان معي جند لقبلت . فتركه وولاه منصور بن جمهور » .

وفيا يرويه الطبرى - أن صح - مقنع لمن يَنْبِزه ، ويرد عليه نسبه إلى دحية .
فدحية - فيما يرويه الطبرى - قد أعقب .

هذا عن نسبه ، له فيه وعليه ، وكذا الحديث عن روايته ، فلم يعد ابن دحية
من أثنى عليه ، وإن لم يبلغ ذلك مبلغ التبرئة مما زُنَّ به .

فابن حجر يقول : « ورأى المغاربة في أبي الخطاب غير رأى أهل ديار مصر » .

ويمضى فينقل عن ابن عساكر في رجال مالقة ، في ترجمة ابن دحية « ...

إلا أنه كان يهتم في الرواية ، لأنه كان مكثرا » .

ثم يعقب على هذا القول فيقول : « فهذا مغربي وافق المصريين » .

ويقول المَقْرِي في النفع : « كان من كبار المحدّثين . ومن الحفّاظ الثقات

الأثبات المحصّلين »

ويقول الغبريني في « عنوان الدراية » قد رأيتُ له تصنيفا في رجال الحديث

لا بأس به ، وأرتحل الى المشرق في دولة بنى أيوب فرفعوا شأنه وقرّبوا له مكانه ،

وجمعوا له علماء الحديث وحضروا له مجلسا أقرّوا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من

أولى الضبط والإتقان والفهم . وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها ، فأعاد

المتون المحوّلة ، وعرف عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من

متونها الأصلية » .

ويقول أبو جعفر بن الزبير في صلة الصلة : وكان مُعْتَنِيًا بالعلم مشاركا

في فنون منه ، مجتهدا مُعْتَنِيًا بالأخذ عن الشيوخ ، ذا كرا للترايح والأسانيد ورجال

الحديث والجرّح والتّعديل »

ثم يقول : « وعرفني بحاله وحال أخيه ابن عمرو عثمان ، الشيخان أبو الحسن الغافقي وأبو الخطاب بن خليل ، وكانا قد صحباهما طويلا وخبراهما جملة وتفصيلا ، الا أنهما ذكراهما بانحراف في الخلق وتقلب لم يشههما غيره ، ووصفاهما مع ذلك بالثقة والعدالة والسداد والأعتناء التام » .

ويقول ابن خلكان : وكان أبو الخطاب من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به . . . وشغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية . ولقي بها علماءها ومشايخها . ثم رحل منها الى برّ العُدوة ، ودخل مرّا كَش وَاَجتمع بفضلائها ، ثم ارتحل الى إفريقيا ومنها الى الديار المصرية ، ثم إلى الشام والشرق والعراق ، وسمع ببغداد وسمع بواسط . ودخل الى عراق العجم ونحراسان وماوالاها وما زندران ، كُل ذلك في طلب الحديث والاجتماع بأئتمه والأخذ عنهم ، وهو في تلك الحال يؤخذ عنه ويستفاد منه » .

ويقول ابن الأبار : « وكان بصيرا بالحديث مُعْتنيا بتقييده مجبّا على سماعه » .

وقول القائلين فيه كما ترى ، فريق مَشْرِقى منهم : الذهبي ، وابن كثير ، وابن تغري بردي ، وابن حجر ، وابن واصل ، يميلون لذكر مثالبه ، ولا يذكرون له الخير إلا والنقيصة في إثره ، ومعهم نفر من المغاربة والأندلسيين ، كابن عساكر ، وابن عبد الملك .

وفريق أندلسي مغربي ، وفيهم : المقرئ ، وابن الأبار ، وابن الزبير ، والغبريني ؛ يرفعون قدره ، وينوهون بشأنه ، ويلتمسون لتقد ناقديه عذره فيه ، فيقول المقرئ : « وإن الناس فيه معتقد ومنتقد . وهكذا جرت العادة في حق القريب المنتسب للعلم :

* وعند الله يجتمع الخصوم *

ولعلك تعرف أن أبا الخطاب كان ظاهرياً ، ذكرها له المقرئ فقال : « وهو يُعرف به » : « بالظاهري المذهب » .

وإن من المعنيين بآبن دحية من يعزو هذا القَدْح وذاك المدح لذاك . وتكاد تكون علمتها غير تلك . فظاهريّة آبن دحية ، إن ثبتت على لسان المقرئ ، فقد وصفه ابنُ الزبير بغيرها ، فقال : « وكان سنيّاً مجانباً لأهل البدع » .

فليس الأمر أمر مذهب إذن ، ولكنه شيء أعدل من هذا وأصح ، فعلم رواية الحديث مشرقى المنبت ، وبالشرق أعلامه وشيوخه ، والتعديل والتجريح صناعتهم ، عنوا بها وعنوا أنفسهم . لم يعلم المغرب ولا الأندلس عنهم إلا بأخرة ، فكان فيه لاحقاً ، وعندهم أخذاً .

والذين جرحوا آبن دحية ، وهم من هذه المدرسة مدرسة الحديث ، كالذهبي وابن حجر ، عنهم نقل المؤرخون . وأما الذين عدلوه ، فهم بين مؤرخ كالمقرئ ليس هذا فته ، أو محدث مؤرخ كأبن الزبير وآبن الأبار ، لم يبلغ مبلغ المشاركة في ذلك استقصاءً وعموماً .

ثم لا تنس أن ابن دحية ، إن كان بالغرب منبته ، ففي الشرق أزدهاره . ومع الثانية الرأي له أو عليه .

وابن دحية كان على شيء مما وصفه به ثالبوه ، لا شك في ذلك ، ولم يفقد شيئاً من الخير الذي جاء على لسان مطربه .

ولم يكن ثانيهما تعصباً له ، كما لم يكن أولهما تعصباً عليه ، وإنما كان للذي ذهبوا إليه من هذا التقصّي في العلم والتحريّ فيه .

وما أكثر ما لقي المحدثون من رجال النقد ، وما أكثر ما وُضع من الكتب في ذلك ، وما أقل المبرأ منهم الموثق في غير مأخذ ولا هنة . ولم يكن ابن دحية

(ع)

غير واحد من هؤلاء . ولكنه أراد أن يبرز قطر قطرا ، لا فرداً فرداً ، فحمل عبئا كلفه شيئا من الشطط لم يقدر له قدره ؛ فترك خصومه يعدون عليه الكثير .

مولده ووفاته :

يذهب المقرئ إلى أن مولد « ابن دحية » كان في ذى القعدة سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ويقول ابن خلكان : « وكانت ولادته في مستهل ذى القعدة سنة أربع — أو ثمان — وأربعين وخمسمائة » .

ويقول : « وأخبرني بعض أصحابنا الموثوق بقولهم : أنه سأل ولده عن مولد أبيه ، فقال : في ذى القعدة من سنة ثمان وأربعين » .

ثم قال : « وأخبرني ابن أخيه قال : سمعت عمي أبا الخطاب غير مرة يقول : ولدت في مستهل ذى القعدة سنة ست وأربعين وخمسمائة » .

هذا مبلغ ما قيل عن مولده . أما وفاته فكانت سنة ثلاث وثلاثين وستائة . وأن ذلك كان في يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول ، عن سبع وثمانين سنة ، كما ذكر العماد الحنبلي .

على ذلك إجماع المؤرخين ، غير ابن الزبير ، فإنه لم يعرفها يقينا ، فقال : « وتوفي قبل سنة ٦٤٠ » .

وكانت القاهرة مثواه ، وفي سفح المقطم مقره الأخير .

نشأته وحياته :

لا نملكها كلمة صريحة تقفنا على أسم البلد الذي تلقى « ابن دحية » وليداً ، وضمه صغيراً حتى شب وأيفع .

فابن الأبار يقول عنه : « الداني الأصل السبتي » وهي عبارة الذهبى أيضا .
والعماد الحنبلى يصفه بقوله : « الداني ثم السبتي » .

ونعود إلى أبى جعفر بن الزبير فنقرأ له فيه : « من أهل سبته » .
ويوثقه ابن حجر العسقلانى ، بقوله : « وهو مغربى من أهل سبته ، وأظنه
كان قاضيها » .

وذكره أبى تغرى بردى مرتين ، قال فى أولهما : « أبو الخطاب بن دحية
المغربى » . وذكره فى ثانيتهما بلقب « البلنسى » .

وبهذا اللقب الأخير « البلنسى » ناداه العُمريّ فى « مسالك الأبصار » والذهبي
فى « سير النبلاء » وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » . ونقله المقرئ فى « النسخ »
عن هذا الأخير ، فقال : « وهو بلنسى ، كما قال ابن خلكان وغيره » .

وعندى أن صلته بدانية ؛ فتكاد تكون من قبل أبيه ، وقد تبعد ، فأبوه :
الحسن بن على ، كان تاجرا بها .

ويذكر ابن حجر أن كلبيته جاءت من « كلب » بين الفاء والباء ، موضع من
ساحل دانية .

وينقل الذهبى عن ابن مسدى : « كان والد أبى الخطاب تاجرا يعرف بالكلبى ،
بين الفاء والباء ، وهو اسم موضع بدانية ، وكان أبو الخطاب يلقب ، الكلبى ،
والكلبى معا ، إشارة إلى الموضع وإلى النسب » .

ونص ابن الأبار والذهبي يميلان ما ذهبنا إليه من ظن . وما قول الحنبلى
عنهما ببعيد .

ويُدنينا من هذا الظن ، ويكاد يُحيله يقيناً ، قولُ ابن الزبير وابن حجر ، ثم ما ذكره
أبى تغرى بردى .

وتمَّ دليل يحمله « المطرب » نفسه ، فأبن دحية صاحبه ، يذكر عن نفسه أنه لقي بالمغرب بمراكش منه أبا بكر العبدري مجد بن عبد الله سنة خمس وستين وحمسانة^(١). ومن قبل تلك السنة لقي بمراكش أيضا سنة أربع وستين وحمسانة أبا عبد الله بن حيوس مجد بن حسين^(٢) .

أى حين كان « أبو الخطاب ، ابن عشر وثمانية ، أو أعلى من ذلك بقليل ، ولما يتم العشرين ، فأخذ عن هذا وذاك وسمع منهما .

ثم عرفناه في « دانية » قاضياً ، ولى قضاءها مرتين ، ثم فصل عنها إلى غير عودة . وما نظنه ولى قضاء « دانية » في سن قبل تلك التي لقيناه بها في المغرب .

ولم يذكر لنا هو أنه سمع بدانية في سن مبكرة ، كما سمع بالمغرب ، الذى كان وجوده به سابقا فيما يبدو ، ومأخوذ أن نقطع .

وأما عن نسبته إلى « بلنسية » فسوف نسكت عنها كما سكت ابن خلّكان ، وهو صاحبها على الأرجح ، فإين أيدينا عنها مزيد . ولعل للمامة بها أربى على المامة بغيرها ، أو كان له بها واصلة تخفى .

نحب أن نزيد أن أبا الخطاب لم يترك المغرب — فيما نظن — إلى الأندلس قبل أن يشهد جنازة شيخه « ابن شقريق » بسنة ٥٧١ هـ ، أو بعد ذلك بقليل ، وأنا رأيناه بعد ذلك يستمع إلى ابن خير بإشبيلية سنة ٥٧٢ هـ ، ولم نزله ذكراً قبل هذا في الأندلس ، فيما ذكره هو لنا أو ذكره غيره عنه .

(١) أنظر صفحة ١٩٨

(٢) » » ٤٠٠

ولا ندرى متى كانت ولايته لقضاء دانية ، وإن كما نرى أنها لم تكن قبل هذا ،
وليه بها مرة أولى ، وكان هذا أول ماولى ، كما يقول صاحب سیر النبلاء ، ثم
وليه مرة ثانية ، كانت بينهما فترة يسيرة ، ليس فى ذلك شك ، ثم صرف عنه .

يذكر ذلك ابن حجر ، فيقول : « وقد كان ولى قضاء دانية ، فأتى بزامر
فأمر بثقب شدقه وتشويه حلقه . وأخذ مملوكاً له بحبّه ، واستأصل أنثيه . فرُفع
إلى المنصور ملك الوقت ، وجاءه النذير فأختفى ونَحْرَج خائفاً يترقب ، ونحرج
نحو إفريقية وشرق ثم لم يعد » .

ومن هنا تبدأ رحلته عن الأندلس ، بعد ما طوّف بها ما طوّف ، يستمع إلى شيوخها
ويروى عنهم .

يقول صاحب سیر النبلاء : « فرحل ولقى بتلمسان أبا الحسين بن أبي حيون ،
فحمل عنه وهو فى تونس سنة ٥٩٥ هـ ، ثم حج وكتب بالمشرق بأصبهان ونيسابور ،
وعاد إلى مصر فاستأدبه الملك العادل لابنه الكامل ، ولى عهده ، وأسكنه القاهرة » .

ويقول الذهبي « فرحل عنها ، وحمل بتلمسان عن قاضيه ابن أبي حيون . وحدث
بتونس فى سنة خمس وتسعين . وحج وكتب بالمشرق بأصبهان وبالعراق ونيسابور ،
وأدرك أبا جعفر الهمداني ، وأبا الصّحّ الفراوى ، والحافظ أبا الفرج بن الجوزى ،
وعاد إلى مصر » .

ويقول ابن خلكان : « ثم رحل عنها — أى عن الأندلس — إلى بر العدو .
ودخل مراکش ، واجتمع بفضلائها ، ثم ارتحل إلى إفريقية ومنها إلى الديار
المصرية — فى زورته الأولى — ثم إلى الشام والشرق والعراق ، وسمع ببغداد
من بعض أصحاب ابن الحصين ، وسمع بواسطة من أبى الفتح مجد بن أحمد

ابن الميداني ، ودخل إلى عراق العجم ونخراسان وما والاها ومازندران ... وسمع بأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني، وبنيسابور من منصور بن عبد المنعم الفراوي ، وقدم مدينة إربل في سنة أربع وثمانئة، «وهو متوجه إلى نخراسان ، فرأى صاحبها الملك مظفر بن زين الدين مولعاً بعمل مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، عَظِيمَ الاحتفال به ، فعمل له كتاباً سماه : التنوير في مولد السراج المنير . وقرأه عليه بنفسه . وسمعناه علي الملك المعظم في ستة مجالس ، في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وثمانئة » .

هذا هو تطواف أبي الخطاب في البلاد بعد هجرته عن الأندلس، وكانت إربل آخر المزار ، ألقى بعدها بمصر عصا التسيار .

فهو قد جاز مصر إلى الشرق ، ومالبت أن عاد إليها ثانية ليقضى فيها ما بقي من عمره. وقد لا يكون الأمر أمر استقرار ، في مصر من هذه الأمصار . بل كانت غدوات وروحات يطول معها المقام أو يقصر . ومصر كانت المآب والمنزل .

ويذكر ابن خلكان أن «العاذل» استأدبه لابنه الكامل ، والكامل لم تعرفه الحياة إلا عام ٥٧٦ . وعندها كان أبو الخطاب بين ربوع الأندلس ، أو لعله كان عندها في دست قضاء دانية . وهو حين حلّ تونس راحلاً عن الأندلس حلها في عام ٥٩٥ ، كما حدثنا الذهبي في سير النبلاء ، فرحلته إلى مصر كانت بعد عامه ذلك .

وفي هذا العام نفسه استدعى الملك «العاذل» ولده «الكامل» إلى مصر ، فخرج من دمشق في الثالث والعشرين من شعبان ، وودّعه أخوه الملك المعظم عيسى إلى رأس الماء - موضع بالقرب من حوران - وكان العماد الكاتب في صحبته، فأنشد:

دعناكِ مصر إلى سلطانها فأجب دُعاءها بنهوض غير مكذوب

ووصل «الكامل» مصر في عاشر شهر رمضان ، وتلقاه أبوه «العاذل» من العباسية وأنزله في دار الوزارة . وكان قد زوجه بنت أخيه صلاح الدين ، فدخل بها . وكان مولد «الكامل» سنة ٥٧٣ - وقيل خمس وسبعين ، كما قيل : ست وسبعين - فسنة حين استدعاه أبوه كانت نحو من اثنين وعشرين عاما ، أو تسعة عشر عاما . وكان استقلاله بمصر بعد وفاة أبيه «العاذل» بعد أن تولاه في حياة أبيه ، تلك الأعوام التي خلت من مجيئه إليها سنة ٥٩٥ إلى عام وفاة أبيه العادل ، أي سنة ٦١٦ هـ .

وإخال بين هذه وتلك كان اللقاء الأول بين ابن دحية والكامل ، حين استأذبه أبوه له ، ثم كان اللقاء الثاني حين عهد إليه الكامل برياسة المدرسة الكاملية ، دار الحديث الكاملية . وهي التي أنشأها الملك الكامل في سنة ٦٢٢ ، وكانت ثاني مدرسة عملت للحديث - وكانت أول دار للحديث على وجه الأرض لنور الدين محمود بن زنكي بدمشق - وقد وقف الكامل مدرسته الكاملية على المشتغلين بالحديث النبوي ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ^(١) .

ويذهب السيوطي في حسن المحاضرة ، إلى أن الكامل حين بنى المدرسة سنة ٦٢١ هـ جعل شيخها أبا الخطاب .

وأحب أن أعود إلى ابن دحية فأحدثك عن سماعه حديثا جامعا أو قريبا من ذلك ، لتعرف كيف آثره «الكامل» على غيره ، وخصه بهذا المنصب دون سواه من معاصريه وأقرانه .

(١) مكان هذه المدرسة بين القصرين من القاهرة ، ولا تزال موجودة الى اليوم بشارع بين القصرين بجوار جامع السلطان برقوق ، وتعرف باسم جامع الكاملية أوجامع الكامل . وقد جدد فيها الأمير حسن كتخدا سنة ١١٦٦ هـ . (وانظر الخطط للقرنبي ٢ : ٣٧٥) .

(ت)

يقول ابن الأبار : « سمع بالأندلس أبا عبد الله بن المجاهد ، وأبا القاسم بن بشكوال ، وأبا بكر بن الجحد ، وأبا بكر بن خير . وأبا عبد الله بن زرقون ، وأبا القاسم بن حبيش ، وأبا محمد بن عبيدان ، وأبا العباس بن مضاء ، وأبا محمد بن بونة ، وجماعة .

وقد حدث بتونس بصحيح مسلم عن طائفة من هؤلاء وعن آخرين ، منهم : أبو عبد الله بن بشكوال ، وأبو الوليد بن المناصف ، والقاسم بن دحمان ، وصالح بن عبد الملك ، وأبو إسحاق بن قرقول ، وأبو العباس بن سيده ، وأبو عبد الله بن عميره ، وأبو خالد بن رفاعة ، وأبو القاسم بن رشد الوراق ، وأبو عبد الله القباعي ، وأبو بكر بن مغاور ، وأبو العباس البلنسى .

ويقول : « وكان بصيرا بالحديث معنيا بتقييده ، مبالغا على سماعه » .

ويقول المقرئ : « كان من كبار المحدثين ، ومن الحفاظ الثقات الأثبات المحصلين ، استوطن بجاية وروى بها وأسمع » .

وينقل ابن حجر فيما ينقل عنه : « وكان حافظا ما هرا في علم الحديث حسن الكلام فيه فصيح العبارة » .

وينقل أيضا : « وكان له معرفة حسنة بالنسبة بالحديث والفقهاء على مذهب مالك » .

ويقول ابن الزبير : « وكان مجتهدا ومثبنا بالأخذ عن الشيوخ ذا كرا للتاريخ والأسانيد ورجال الحديث والجرح والتعديل » .

ويقول ابن خلكان : «وكان أبو الخطاب متقنا لعلم الحديث النبوي وما يتعلق به . واشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ولقى علماءها ومشايخها » .

وقد سقنا قبلُ شيئاً من حديث ابن خلكان عن سماع أبي الخطاب بالمشرق .

ويقول الذهبي في تذكرة الحفاظ: «وسمع بمصر من البوصيري وطبقته ، وسمع مسند الإمام أحمد بواسطة من الميداني، وسمع معجم الطبراني كله من الصيدلاني ، وحدث في سنة ستائة بالموطأ، وزعم - ولم يدخل في الأذن دعواه - أنه قرأ صحيح مسلم من حفظه على بعض شيوخه » .

ويقول ابن شهبه : « كان متقنا الحديث » .

ويقول الغبريني في عنوان الدراية: «رأيت له تصنيفاً في رجال الحديث لا بأس به ، وارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب ، فرفعوا شأنه وقربوا مكانه، وجمعوا له علماء الحديث ، وحضروا له مجلساً ، أقرؤا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من أولى الضبط والإتقان والتفهم . وذكروا أحاديث بأسانيد حوّلوا متونها ، فأعاد المتون المحوّلّة ، وعزّف عن تغييرها، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من متونها الأصلية» .

ويذكر له المقرئ من شيوخه في الأندلس : ابن حبيش ، وابن حوط الله ، وأبا الربيع الكلاعي .

ثم لا تنس ولايته القضاء مرتين بدانية من قبل ، ولها ما لها . فهذا كله ، على الرغم مما قيل فيه من تجريح ، لا يسقط الرجل ، إذ هو لم يبلغ مبلغ المجرحين إلا بعد أن عدّ في زمرة المحدثين . وقلّ محدّث لم تعدّ عليه سقطاته إلى جانب حسناته .

وقد عرفنا الملك « الكامل » ذكياً فطنا يُحِبُّ العلماء والأماثل ويلتقي عليهم
المشكلات ، ويتكلم على صحيح مسلم .

وزيد ابن مسعود الأندلسي الغرناطي في معجمه : « كان الكامل محبا للحديث
وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف » .

ويحكى أن أباه العادل استجاز له « السلفي » قبل موت « السلفي » بأيام .

ويقول الحافظ المنذرى عنه : « وكان معظماً للسنة النبوية وأهلها راغباً في شرها
والتمسك بها ، مؤثراً الاجتماع مع العلماء والكلام معهم حضراً وسفراً » .

وهذا أبو الخطاب محدث ، له سماع وتحديث آثار عليه المتألفين ، فأخذوا
عليه ، وأثبتوا له ، ثم هو حافظ لصحيح « مسلم » كما يدعى .

فاجتمع الرجالان - الكامل وابن دحية - على مؤلفته . ومن قبل تولى
أبو الخطاب الكامل مؤدباً . وما يدرينا ، فلقد يكون هو الذي غرس في نفسه هذا
الميل ، أو قل : لقد أعدى ميل ميلاً ، فنشأ الكامل على سنة شيخه ، وطبع
بطابعه الغالب عليه ، فنشأ المشغول بالحديث ، المعنى بأهله . ثم لقد كان الكامل
لأبي الخطاب مجلاً ، رعى له تأديبه ، وحفظ له حق المتعلم للمعلم .

يقول ابن النجار : « وكان الكامل يعظّمه ويحترمه ويعتقد فيه ، ويتبرك به ،
حتى سمعت أنه كان يسوي له المداس إذا قام » .

إذا فإلى من يكل « الكامل » بهذه المدرسة إذا لم يولها أبا الخطاب ، حتى
لنراه يجعلها إراثاً في آله ، يوليها من بعده أخاه أبا عثمان بن دحية ، ثم ابنه
شرف الدين بن أبي الخطاب ، بعد أن وليها المنذرى عبد العظيم فترة .

ويحدث المؤرخون عن تغير «الكامل» عليه ، وعزله إياه عن دار الحديث ، فيقولون : «إن «الكامل» بلغه أن «ابن دحية» غير ثقة فيما يحدث به ، فأمره أن يعاقب شيئاً على كتاب «الشهاب» . فعلق كتاباً تكلم فيه عنه أحاديثه وأسانيده ، فلما وقف الكامل على ذلك قال له بعد أيام : قد ضاع شيء من ذلك الكتاب فعلق لي مثله . ففعل . بغاءت في الكتاب مناقضة للأول . فعرف السلطان صحة ما قيل عنه ، وعزله من دار الحديث ، وولى أخاه أبا عمر وعثمان .

غير أن ابن حجر يعقب ويقول : «وقيل إنما عزله ، لأنه حصل له تغير ومبادئ اختلاط» .

ويكاد يكون ما عقب به «ابن حجر» أولى ، فلقد كان طول المصاحبة كفيلاً بأن يتعرف «الكامل» هذا المطعن في أستاذه ، والألسنة من حوله ، ما تقرُّ في أفواهها ، تجريباً للشيخ بهذا وغيره .

إذاً فابن دحية ترك المدرسة ، ليعتزل الحياة العلمية ، حين بات لاغناء عنده ولا انتفاع فيه . وقد أقره السن . والمؤرخون يسكتون فلا يذكرون متى كان عزل هذا بهذه ، وإن كانوا يشيرون إلى أن ذلك لم يكن قبل موت ابن دحية بكثير . ولم نعرف «أبا عمرو» انتفع بها كثيراً ، فقد مات بعد أخيه بعام أي سنة ٥٦٤ هـ . ثم آلت بعد فترة إلى «شرف الدين بن أبي الخطاب» .

كل ذلك في حياة «الكامل» . ولو أن أبا الخطاب صرّف منها مخرجاً مطعونا ، ما التفت «الكامل» لأخيه أو لابنه يمنحهما رباستها ، وما نظنهما باعاً مبلّغاً سمعاً ودراية .

حظه من اللغة والأدب :

لعل «العمري» في «مسالكه» خير من وفتي «ابن دحية» وصفاً حين يقول: «وقف للأطلاع على كل نثية ، وهتف للأستطلاع بكل قضية ، وقاد نافر اللغة حتى جعل الغريب قريبا ، والحوشي ريبيا ، وأتى بها إلى الحاضرة قسرا من باديتها ، وقهرا لها في تأديتها ، فعادت إلى الحسنى ورق كلامها ، ودق حتى خفى إلمامها ، وله رسائل حوشية كتبها لتدل على غزارة مادته ، وإنارة جادته ، وقد أضربت عن ذكرها صفحا ، ولم أسمع لها صدحا ، لثقل وطأتها على الأسماع ، وشدة منافرتها للطباع ، كأنها كلام النائم ، ونقيق الضفادع في الليالي العواتم ؛ تظن أنها ليست مركبة من الحروف ، ولا دالة على معنى معروف ، على أن له في أنحر ما يخف ، ولكنه مما لا يشف ، ولا يندى ورقه ولا يرق ، فلذلك أيضا ألغيتها ، وأعرضت عنها فأردتها ولا ابتغيتها .»

ويتلوه الغبريني فيقول : «وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة ، حتى صار حوشي اللغة عنده مستعملا غالبا عليه . ولا يحفظ الإنسان من اللغة حوشيا إلا وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها . وكان قصده - والله أعلم - أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره من الناس ، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب ، وأنفردوا بالطريق الآخر ، لأنهم انفردوا به واشتهروا فيه ، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كأحد الناس ، وكذا الشيخ أبو الخطاب بن دحية الكلبي .»

ويقول المقرئ : «له رسائل ومخاطبات ، كلها مغلقات مقفلات ، وكان - رحمه الله تعالى - إذا كتب اسمه فيما يجيزه أو غير ذلك يكتب : ابن دحية ، ودحية معاً ، المتشبه به جبريل وجبرائيل ، ويذكر ما ينيف على ثلاث عشرة لغة مذكورة في جبريل .»

وإنك لتقرأ لابن دحية في ثنانيا كتابه « المطرب » حديثا سهلا تكاد تنفي به ما يلصقه به واصفوه بالإغراب . كما تقرأ له في « النبراس » وينقله عنه المقرئ في « النسخ » فيقول : « وما أحسن قول أبي الخطاب بن دحية الحافظ » ثم يسوق ما اقتبس ، وهو : « وأخذت من طريق خوزستان إلى طريق حلوان ، وقاسيت من الغربية أصناف الألوان ، ومررت على مدائن كسرى أنوشروان ، وزرت بها قبر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم الزاهد العابد المعمر سلمان ، وأعملت منها السير والإغذاذ ، إلى مدينة بغداد .

فهذا وغيره يدل على سهولة وخفة ، ما أحق صاحبهما بشيء من الإنصاف . ولكنه هنا مؤلف يسرد ، لا كاتب يثر . وفرق بين صناعة وصناعة . ولقد قرأت له سهله ، فما أحوجك إلى أن تقع على صعبه :

ذكروا أنه كان له خديم يخدمه ، واحتاج الوالى إلى تجهيز قطع في البحر يبعث بها للمغرب ، فأخذ خديمه في جملة الغزاة . فكتب لأبي على بن يرمور والى بجاية ، وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة - وكان ابن دحية في ظله - يأنبه على خديمه ليسرجه :

« الشيخ الفقيه الأديب الحججاج الهرماس أبو فلان ، جحظ الله قعثبان شفترته . هذا الغطريس في اليم أخذ رجلاً لا يملك حذرفوتا ، فيرى الزبرقان فيخاله حواري ، ويرى الجعل فيحسبه زعجبا . وله قرحة أمحشت من الحر ، وتعطل كبرها . فأبعث إلى هذا العثري من يخضد شوكته . والسلام » .

ويقال إنه لما وصلت هذه أبا علي بن يرمور ، لم يفهم لغتها ، فاستحضر
كُتِبَ اللغة وغيرها ليفهم غريبها ، فلم تتضح له إلا بعد أيام ، بعد أن سافرت
الأجفان .

هذا مثل له نفقد أشباهه ، ولكنه وحده يقوم دليلا على تكلفه الإغراب
على سماجة . ولعله فيه يقصد إلى المعاياة والتظرف ، ولا سيما والمكتوب إليه
في هذا الشأن - كما تصفه المراجع - متحذلق ، فلم لا يُثقل عليه أبو الخطاب
ويجلب إليه من « هجره » ويحمل إليه من بضاعته . وما نظن مثل هذا يقوم دليلا
على ظلم الرجل ، وغيره كثير ينصفه .

يبقى له بعد صناعة الثرقرض الشعر ، وصف وجدناه له على لسان بعض من
أرخوا له . وما ذكروا له ديوانا مجموعا أو شبه مجموع . وإن كانوا قد أوردوا له
مقطوعة أو اثنتين ، وثمت أبيات متفرقة ذكرت له في ثنايا ما ألف وبقى لنا .

قال الغبريني ونقل عنه المقرئ : « ومن شعر أبي الخطاب ما وقعت عليه
في ورقة بخط بعض المشاركة ونصه : قال الحسن بن أحمد بن عبد الرحيم
البيساني : كتب إلى الفقيه الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية ، وأجازني الرواية
عنه وشافهني بالإجازة ، قال : كتب إلى السلطان الملك الكامل أبي المعلى محمد بن
أبي بكر بن أيوب هذه القصيدة :

مالي أسائل برقَ بارقَ عنكم	من بعد ما بعدت ديارى منكم
وبمنحنى الأضلاع بل وادى الغضا	من مهجتي ياراحلين نزلتم
فحللكم قلبي وأنتم بالحشا	لا بالعقيق ولا برامة أتم
وأنا المقيم على الوفاء بعهدكم	يا مالكين وفيتم أو خنتم

أُظَنُّنْتُمْ أَنِّي سَلَوْتُ وَأَنْبَى
هِيَاهُ هَلْ يَسْلُو بِذِكْرِ مَالِكٍ
أَمَنَازِلَ الْأَحْبَابِ أَيْنَ أَحَبَّتِي
وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِرَبِيعٍ عَزَّةً مُنْشِدًا
نَزَلُوا الْحَطِيمُ وَمَاءُ زَمْرَمٍ أوردوا
وَسَرَوْا وَقَدْ أَسْرُوا الْفِؤَادَ وَحَرَمُوا
نَادِيَتُهُمْ وَهُمْ الْمُئْنَى بِمَنْبَى وَقَدْ
لَمْ تَسْكُنُوا الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَإِنَّمَا
هُمْ فِي السَّوَادِ وَفِي السُّوَيْدَا خِيَمُوا
وَهُمُ الَّذِينَ إِذَا سُئِلْتُ مَنْ الَّذِي
أَنَا بَاخِعٌ نَفْسِي عَلَى آثَارِهِمْ
أَحْبَابِنَا طَالَ الْمَطَالَ بِوَعْدِكُمْ
عُودُوا يَعُودُ اللَّيْلُ صَبْحًا مُسْفِرًا
وَالذَّنْبُ ذَنْبِي فِي الْهَوَى وَخَطِيئَتِي
حَكَمْتِكُمْ فِي مُهْجَتِي فُحْكَمْتُمْ
وَرَحَلْتُمْ بِالْقَلْبِ يَوْمَ رَحَلْتُمْ
وَلَقَدْ كَتَمْتُ هَوَاكُمْ حَتَّى وَشَى
وَالسُّقْمُ يُفْصَحُ بِالصَّبَابَةِ وَالْأَسَى
حَاشَاكُمْ مَنْ أَنْ تَجُورُوا فِي الْهَوَى
وَالْعَدْلُ بِالْمَلِكِ الْهَامِ مُحَمَّدٍ
عِزُّ الْمُلُوكِ الْكَامِلِ الشَّرْفِ الَّذِي

خُنْتُ الْعُهُودَ نُفُحْتُمْ وَعَدَرْتُمْ
مِنْ حُبِّكُمْ مَنْ لِلْغَرَامِ مُتِمٌّ
فَهُمْ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ الْأَنْجَمُ
يَارْبِعُ أَيْنَ تُرَى الْأَحْبَةَ يَمَمُوا
نَعِمَ الْحَطِيمُ بِهِمْ وَرَقَّتْ زَمْرَمُ
طَيْبَ الْهَجُوعِ عَلَى لَمَّا أَحْرَمُوا
ضَرَبُوا بِهَا حُمْرَ الْقَبَابِ وَخِيَمُوا
حَرَمَ الْفِؤَادِ الْمُسْتَهَامِ سَكَنْتُمْ
مَا أَعْرَقُوا مَا أَيْمَنُوا مَا أَشَامُوا
تَهَوَّاهُمْ قَلْتُ الَّذِينَ هُمْ هُمْ
أَسْفًا فَلَا خَلَّتِ الْمَنَازِلُ مِنْهُمْ
لِي بِالْوَصَالِ وَطَالَ لَيْلِي فِيكُمْ
وَالصَّبْحُ بَعْدَكُمْ بِهِمْ مُظْلَمٌ
مِنْ دُونِكُمْ وَأَنَا الْمَسِيءُ الْحَرَمُ
فِيهَا بِمَا شَاءَ الْغَرَامِ وَشِئْتُمْ
وَضَعْتُمْ بِالصَّبْرِ يَوْمَ ظَعَنْتُمْ
سُقِمِي بِذَلِكَ وَدَمَعُ عَيْنِي الْمُلْزَمُ
وَالدَّمْعُ يَكْتُبُ مَا الْمَعْنَى يَكْتُمُ
وَنَعْمَ ظَلَمْتُمْ بِالْبِعَادِ وَجُرِّمُ
بَادِي الْمَنَارِ لِكُلِّ مَنْ يَتَظَلَّمُ
لِعَلَّانِهِ السَّبْعُ الْكَوَاكِبُ تَخْدَمُ

(ب*)

فالمشترى كالمشترى لسعوده
والقوسُ يرمى عن إرادة عزمه
فدعِ التخرسُ يا منجمٌ وآتئد
ما كوكبُ المصباحِ ذو التُّربِ الذى
رفعت له الأملاك منه سجية
لما اغتدى فى الجند يخدم سابعاً
هذا الصحيح من المقالات التى
لدوى النهى والفهم سرِّ حكومة
وآقصد مرادك حيث صرت مظفراً
وليهنك الشهرُ السعيدُ تصومه
فلأنت فى الدنيا كأيلة قدره
أثنى عليك لأنَّ شكرك واجبٌ
وكذا الأيادى البيضُ سُب نوالها
ولى السوارى فى علاك مدائحاً
فبقيت ما بقيت حمامة أَيْكةٍ
تحمى فلا متهمٌ يسطو ولا

يُمسى ويصبح حيث أمَّ يؤم
غرض المقاصد والمقادير أسهم
فالحكم عندى غير ما قد تحكم
فى القرب من بعد الغروب يُعتم
ملك السماء الرمح وهو محرم
بهرام سياف النجوم الضيغم
فبها يمكنون الغيوم يرجم
قد حار فيها كاهنٌ ومنجمٌ
فالله يكلاء والكواكب قُوم
وتفوز فيه بالثواب وتغنم
قدراً فقدرك فى الملوك معظم
إذ أنت فى الخلق المغيث المنعم
تسرى كما يسرى السحاب المسجم
كالشهب تُنجد فى البلاد وتهم
من فوق غصن يانج تترقم
متحرم يشكو ولا مُتظلم

ورأيت نقلها هنا كاملة لأجمع بين يديك جملة صالحة للحكم على « ابن دحية »
شاعراً . والقصيدة كما ترى فى الكامل سلطانا ، أى بعد عام ٦١٦ هـ . وكان ابن
دحية عندها شيخاً من الشيوخ قد أشرف على السبعين أو جاوزها .

ويقولون : إن السلطان أجابه بنثر ونظم . وكان من نثره إليه :

« الحمد لله وليّ الحمد . وقف ولده على الأبيات التي حَسُنَ شعرها ، وصفا دُرّها .
وليس من البديع أن يقذف البحر دُرّاً ، أو ينظم الخليل شعرا . وقد أخذت
الورقة لأتنزه في معانيها ، وأستفيد بما أودعه فيها . والله تعالى لا يُخَلِّينا من فوائد
فكرته ، وصالح أدعيته . والسلام » .

فهذا كتاب سلطاني ينطق بالبربه ، ضمه إلى ما قيل قبل عن رعاية الكامل
لأبي الخطاب .

وبعد هذا النثر من كتاب «الكامل» تضطرب المراجع في ذكر أبيات عينية ،
يقتطع المقرئ منها طائفةً ويدعيها للكامل ، تمةً لخطابه إلى أبي الخطاب . ثم يذكر
بعدها طائفة أخرى من البحر والروى ، يدعيها لابن دحية ردًا على «الكامل» .
ويضمها «الغبريني» بعضها إلى بعض ويجعلها كلها لابن دحية بجيب بها «الكامل» .
ويروى «ابن دحية» كثرةً من هذه الأبيات في كتابه المطرب (ص ١٨٤ -
١٨٥) ويمهد لها بقوله: «ولبعض أهل العصر في قصيد فريد يمدح فيها مولانا
السلطان الملك الكامل على ملوك العصر ، أيده الله بالنصر» .

وما نظن أن «أبا الخطاب بن دحية» أراد نفسه تليحاً ، فما عودنا هذا فيما
يكتب ، وهو الحريص على ذكر لقبه «ذو النسبين» مع كل مقول له . ولقد
اجتزأت بذكر «ابن دحية» لها في هذا الكتاب ، والعود إليها من التكرار .

وتمَّ أبيات أخرى لابن دحية ختم بها «مطربه» يخاطب بها «الكامل» تراها
في (ص ٢٤٢-٢٤٣) على روى الدال وفيها يقول :
فهاك ما شئت من نظم له سبق كالدُرِّ ففصل فامتازت فرائده

لبن هذه الميمية ثم الدالية وعلى العينية - إن عشت أمها له - نرى أن ابن دحية
على حظ من قول الشعر ، لا أظن يرفعه إلى أن يعدّ من رجاله ؛ إلا أن تقصد
أنه من قائله .

ولعلنا إلى رجعة عن هذا الحكم ، إن طالعنا له الأيام بجديد فيه خاطر وفكرة ،
وإلا فنحن عند ما ذهبنا إليه ، والشئ يدلّ قليله على كثيره .

مؤلفاته :

ولقد مضى «ابن دحية» بعد أن نيف على الثمانين ، جواباً للآفاق ، قطع الدنيا
العربية من مغربها إلى مشرقها ، وجيهاً حيث حلّ ، بعد أن خلف لنا مؤلفات
بقي أكثرها بأسمائها ، وسلمت قلوبها من الضياع ، وهي بعد «المطرب»
الذي سنتحدث إليك عنه بآخر ، مرتبة على حروف الهجاء :

١ - الآيات البيئات في ذكر ما في أعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من
المعجزات - بهذا الاسم ذكره المقرئ . واقتصر «حاجي خليفة» في «كشف الظنون»
على ذكر الشق الأول من اسم الكتاب . ثم ذكره «اسماعيل عارف باشا» «في هدية
العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين» كاملاً كما ذكره المقرئ . ويذكره ناسخ
«الابتهاج» في ثبت جعله نحر المخطوط ويزيد: «في شرف أعضاء النبي صاحب
المعجزات» . ويضيف «بروكلمان» أن هناك بالجزائر منه نسخة برقم (١٦٧٩)
ويجعل اسم الكتاب «الآيات البيئات في خصائص أعضاء رسول الله» .

٢ - الابتهاج في المعراج - كذا في ثبت كتب «ابن دحية» التي أثبتها له كاتب
«نهاية السؤل» في صفحة أخيرة مستقلة . وقد ذكره السخاوي في كتابه «الإعلان
بالتوبيخ» (ص ٩١) فقال: «ولأبي الخطاب بن دحية وغيره : المعراج» .

٣ - استيفاء المطلوب في تدبير الحروب - لم يذكره إلا صاحب الثبت المتقدم في آخر «نهاية السؤل» .

٤ - الإعلام الممين في المفاضلة بين أهل صفين - كذا ذكره المقرئ .
وسماه الذهبي في «تذكرة الحفاظ» و«سير النبلاء» . وابن الأبار في «التكملة» : «النص الممين ...» . وذكره صاحب الثبت باسم «التبيين في التفاضل بين أهلى صفين» .
ومنه نسخة بمكتبة الأسكور يال برقم (١٦٩٣) تحمل هذا الاسم : «كتاب إعلام النصر الممين في المفاضلة بين أهلى صفين» . وفي أولها : «أما بعد حمد الله مقدر الحياة والاجال . فإنك سألتنى ... عن أخبار حرب صفين ، وما جرى فيه بين المسلمين المختلفين ، وحصل (وفضل) على التعيين . فوجب أن أئين ذلك أحسن تبيين : حدثنا غير واحد من شيوخنا» . ثم استطرده يذكرهم شيخا شيخا ، حتى انتهى إلى أبى غنيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق .

٥ - أنوار المشرقين في تنقيح الصحيحين المشرقين - كذا ذكره صاحب الثبت السالف .

٦ - تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم - مما ذكره صاحب الثبت أيضا .

٧ - التحقيق في مناقب أبى بكر الصديق - ذكره اسماعيل عارف باشا في «هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين» عند ذكر ترجمة «ابن دحية» .

٨ - تعليق على شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية للقضاعى أبى عبد الله بن سلامة المتوفى سنة (٤٥٤ هـ) ذكره صاحب «هدية العارفين» .

٩ - تنبيه البصائر في أسماء أم الجائر - ذكره حاجي خليفة وقال : « وهو مختصر على الحروف . أوله الحمد لله الذي رضى دين الإسلام لعباده المسلمين » وذكر « بروكلمان » أن منه نسخة بمكتبة « ليدن » .

١٠ - التنوير في مولد السراج المنير . وقد مر بك ما دعاه إليه . ويقول حاجي خليفة : « ألفه بإربل سنة ٦٠٤ هـ وهو متوجه إلى خراسان ، باتمس الملك المعظم الأيوبي . وقد قرأه عليه بنفسه وأجازه بألف دينار غير ما أجرى عليه مدة إقامته » .
وفي المكتبة الأهلية بباريس منه نسختان برقمي (١٤٧٦ ، ٣١٤١) .
ويذكر الأستاذ العزاوي ؛ أنه كان عنده منه نسخة ولكنه أضلها .

١١ - سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب - ذكره ابن دحية في النبراس (ص ١٩) وقال : « وباقي هذا النسب ذكرته في كتاب «سلسلة الذهب في نسب سيد العجم والعرب» .

١٢ - شرح أسماء النبي صلى الله عليه وسلم - وقد ذكره المقرئ أيضا .

١٣ - الصارم الهندي في الرد على الكندي - وكان حضره هو والتاج الكندي عند الوزير ابن شكر فتناظرا . وأورد ابن دحية حديث الشفاعة . فلما وصل إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام « إنما كنت خليلاً من وراء وراء » فتح «ابن دحية» الهمزتين . فقال الكندي : «وراء وراء ، بضم الهمزتين» . ففسر ذلك على «ابن دحية» ، فصنّف في هذه المسألة هذا الكتاب «الصارم» . وبلغ ذلك الكنديّ فعمل مصنفًا سماه «نتف اللحية من ابن دحية» . ذكر ذلك غير واحد ممن ترجموا لأبي الخطاب ونقله حاجي خليفة .

ويذهب العماد الحنبلي إلى أن تأليفه للكتاب كان لتعريض الكندي بنسب ابن دحية وردده عليه .

١٤ - عصمة الأنبياء - مما ذكره صاحب الثبت أيضا .

١٥ - العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور - أشار إليه ابن دحية في المطرب (ص ٢٢٣) . ومن الكتاب مخطوطة بمكتبة الإمام يحيى باليمن رقمها (٢١٤) أدب ، قديمة الخط ، عدد أوراقها ٣٢٠ وهي ناقصة من آخرها ، وربما كان ما ينقصها ورقة أو نحوها . وقد صورتها بعثة مصر إلى اليمن على شريط ، محفوظ برقم (٢٩١) . والمخطوطة فيما تبدو ، قد ذكرت فيها الشهور مرتبة ، وذكر ما يتصل بكل شهر من فضائل ، ولغة ونحو وغريب . وقد نقل عنه في كتابه « النبراس » في أكثر من موضع فقال (ص ١٠٤) : « وقد تكلمنا على هذه اللفظة ، أعنى الدجال ، في المجلد السادس من كتاب « العلم المشهور في فضائل الأيام والشهور » وذكرنا فيه عشرة أقوال » . ثم قال في (ص ١٢٣) : « وذكرنا اشتقاق قرمط ونحوًا من أخباره المستزلة أو آثاره القبيحة المستفحلة . في فضل المحرم في كتاب العلم المشهور » . ثم قال في (ص ١٦٩) : « وقد تكلمت على هذا الحديث وأثبت أنه من الصحيح لا السقيم . وخرجت طرقة في كتاب العلم المشهور بعون من العزيز الرحيم » .

١٦ - مرج البحرين في فوائد المشرقين والمغربيين - ذكره صاحب الثبت .

وزاد « بروكلمان » أن منه نسخة بليدن برقم (٩٠٣) .

١٧ - المستوفى من أسماء المصطفى - وقد ذكر حاجي خليفة أن القاضي ناصر الدين» لخصه في كراسة . وقال : « ذكره السخاوى فى القول البديع » .

وأشار إليه السخاوى فى الإعلان بالتوبيخ (ص ٩٠) .

وسماه صاحب الثبت « المستوفى فى ... » .

١٨ - مصنف فى رجال الحديث - ذكره الغبرينى فقال : «رايت له تصنيفا

فى رجال الحديث لا بأس به » .

١٩ - النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس - وقد قام على تحقيقه ونشره الأستاذ

عباس العزاوى . وخرج به على الناس (سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م) . وقدم له ببحث طريف جامع عن الكتاب ومؤلفه ، أفدت منه كثيرا .

٢٠ - نهاية السؤل فى خصائص الرسول - ومنه مخطوطة بدارالكتب المصرية

رقمها (٦١٢ حديث) . بخط قديم حسن ، فى ١١٣ ورقة . قال فى أولها « الحمد لله الذى تزهدت عن درك الإحاطة ذاته ... وبعد فىانى ذكر فى هذا الكتاب بإذن الله الذى لا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا يلفظ بكلمة إلا بإذنه وحكمه ، مايسرلى حفظه وعلمه ، وقدرلى شرحه وفهمه ، من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لم تجمع قبل فى مخلوق » .

٢١ - وهج الجمر فى تحريم الجمر - ذكره ابن دحية مرة فى « المطرب » عند الحديث

عن « ابن زرقون » (ص ٢١٩) فقال : « وقد تكلمنا على نسبه ولقبه فى كتابنا المسمى بوهج الجمر فى محريم الجمر » . ثم أئجرى (ص ٢٢١) حين ساق أبياتا على روى الميم لابن زرقون وقال : « وقد تكلمنا على هذه الأشعار ومن انتقدها عليه

من العلماء الكبار، واعتذرنا عنها بأبلغ الاعتذار، وذلك في كتاب «وهج الجمر في تحريم الجمر». وكان الكتاب كما يدل على العنوان، وتطالعك عباراته؛ مأخذ على من ذكر الجمر والعيب من القائلين فيها. وهو في خلال هذا وذاك يترجم للناس، ويعرض لشعر الشعراء منهم.

٢٢ - خطب - ذكرها صاحب الثبوت فقال: «وخطب بليغة وغير ذلك».

فأنت ترى أن كثرتها لرجل عاش للحديث حقاً برئ - من الزلات أو لم يبرأ - فتن بصاحبه محمد صلى الله عليه وسلم نخصه من بين مؤلفاته بالنصف، أو بما يربى عليه قليلاً. وإن كانت هذه الكتب لم تقع لنا إلا بأسمائها، فبلغ القول فيها أنها نفعة مؤمن. أما ما وراء ذلك من علم يُفاد، أو رأى ينتفع به، فرهن بالعثور عليها. ثم هو بعد ذلك مؤرخ، يدلنا في كتابه «النبراس» على أنه مقل والمؤرخون مكثرون. يقتطف رؤوس الحوادث اقتطافاً، ويغلب عليه الحديث فيسند أخباره، شأن من سبقوه وكان علمهم مثل علمه مزيجاً من الفنين.

وهو بعد هذين بين اللغة والأدب، في المطرب، ووهج الجمر؛ والعلم المشهور. وللحديث أيضاً منها جميعاً نصيب.

فأبو الخطاب حين ألف صوّر نفسه. وفاض عن زاد مذخور. ولم يقم نفسه في غير ما هو له؛ وما أظنه عني نفسه عناء المؤلفين يستقصون لما يجعون، وينصبون عما يلمون به، بل كأني به أملى ما وعى، وما أفاده مما إليه سعى. وقد يكون كتابه المطرب خيراً ما ألف، وأفسح مجالاً للمتحدث.

٢٣ - المطرب :

وكتابه المطرب صورة صادقة لهذا، فكثرت تحديث ومُشافهة. فهو لا يقنع إلا أن يسوق السند موصولاً، تدفعه إلى ذلك إما صناعة غالبية، أو تقليد لما سبق إليه من

كتب المشاركة في الأدب والتاريخ . وكان ذلك نهجا غالبا عليهم ، لم يبرأ منه إلى عصر ابن دحية - فيما نظن - أحد .

يحدثنا ابن دحية في «المطرب» عن «الرمادى» فيقول : « أنشدنى غير واحد من شيونى رحمهم الله ، منهم الشيخ الفقيه الأجل قاضى الجماعة الأجل أبو الحسن على بن عبد الرحمن لفظا بمنزله بمدينة تلمسان ، قال : أنشدنا الإمام العالم أبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن خلف بن موسى بن أبى تليد الشاطبي ، قال : أنشدنا الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر ، قال : أنشدنا مقدم الشعراء أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى لنفسه ، وتوفى سنة ثلاث وأربعائة » . ثم يسوق له بعد هذا السند الطويل أبياتا ستة يعقب عليها بكلمة قصيرة لا تتجاوز السطرين .

وفي هذا السنن يجرى ابن دحية فى كتابه ، يُثقله بالأسانيد التى لو جرده منها لعاد إلى النصف أو نقص قليلا .

ثم هو لم يعمد فيه إلى تبويب وتنسيق ، بل هو ، كما وصفه فى مقدمته ، قد استرسل فيه مع الخاطز ، على ما يوجد به ويسمح ، ويعن له ويسخ .

وهذا أيضا من نهج المُحدثين المُملين ، لا المؤلفين المبوئين .

فالكاتب كما ترى من حيث النهج حديثي ، ومن حيث الموضوع أدبي ، يضم إلى ذلك طرفا من أخبار تاريخية . ثم هو لم يُخله - كما يقول - من مُشكلى على الغريب والعربية .

وقد كتبه ابن دحية استجابة لرغبة سلطانية ، لسلطان مصر حينذاك «الكامل» ، كما أشار فى تصديره . وقد سبق أن «الكامل» ولى ملك مصر عام ٦١٦ هـ . وإن صح

أنه طلبه عَجْلاً مع تولّيه، فالكتابُ وليد تلك الأعوام اللاحقة لا يعدوها كثيراً؛ لأنه سهل المنال على رجلٍ يقول: «إنه يُملى من حفظ، ويحدث عن سماع، ويروى عن مشاهدة». وغير بعيد - وهو يُعدّ لمثل هذا من نشأته - أن يكون له تدوين أفاد منه حين ألف؛ لكثرة ما ورد في الكتاب من سماع طويل ثقيل على الواعية. وقد لا يكون، فهو محدّث أختبر في مثلها فروى كتباً بأسانيدها.

ولا أدري أكان قصره الكتاب على كل أندلسي وآخر مغربي شيئاً أرادته منه السلطان أم أرادته هو للسلطان. فإن كانت الأولى؛ وقد قالها هو؛ فما من شك في أنه مُثيرها والمُوحى بها والمشوق إليها؛ ليعرّف بفضل آله وذويه؛ ويدفع نقصاً لمسّه؛ ويرفع من هوان أحسّه؛ وفي الكتاب أكثر من إشارة، تُعبّر في صريح عبارة، عن علم الرجل بأهتضام المشاركة للغاربة، وإنزالهم في الأدب منزلاً غير لائق، والغض من شأنهم الفائق.

وهو في ذلك: إما نازعٌ منزعٌ غيره من مغاربةٍ سبقوه؛ أو مصدر عن خاطرٍ يحدّوه. فهو حين يُطرى «أبن زيدون» مقتبس قول «الفتح بن خاقان» غير مُشير إلى ذلك الاقتباس. وكأنّ وحدة الخاطر أنسته ما للغابر؛ فيقول والقول للفتح: «فن قصائده - يعني ابن زيدون - التي ضربت في الإبداع بسهم؛ وطلعت في كل خاطر ووهم؛ ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم».

وإما نافث عن صدر مصدر ملىء غيظاً وحنقاً، فأراد أن ينصف قومه في مؤلف أرادته لذلك، حين خصهم به دون غيرهم. فكيف به لا يقتنص الفرصة حين يجد مجال المفاضلة يعطيه، وإحسان ذويه موتاه. أستمع إليه يعقب على شعر الغزال (ص ١٤٥): «وهذا الشعر لوروى لعمر بن أبي ربيعة، أو لبشار

ابن بُرد ، أو العباس بن الأحنف ومَن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين — يريد شعراء المشرق — لا ستُغرب له . وإنما أوجب ذلك أن يكون ذكره منسياً ، أن كان أندلسياً . وإلا فما له أُحمل ، وما حقُّ مثله أن يُحمل .

والرجل « وطني » بما في معنى هذه الكلمة من معانيها الطيبة . ما نظنه رُزق خيراً مما رُزقه في الشرق ، ولا سيما في مصر . وما خلت جوانحه من حنينٍ باقٍ إلى الأندلس ، يروى الفضل لغيره من بنى وطنه فيفخر ، وكأنَّ نفسه يذكر ، فيقول عن الغزال أيضاً : « وأقام الغزال في رحلته تلك مدة يتجول في ديار المشرق ، وما انفك في كل قطر منه من غريبة يطلعها ، وطريفة يبدعها . ثم إنه رجع إلى نفسه وحنَّ إلى مسقط رأسه وانصرف إلى الأندلس » .

وما أصرحه حين يقول (ص ١٤٥) : « ألا نظروا — يعني المشاركة — إلى الإحسان بعين الاستحسان ، وأقصروا عن استهجان الكريم الهجان ، ولم يُخرجهم الإزراء بالمكان عن حد الإمكان . لئن أرهفت بصائرهم البصرة ، وأرقتها الرقنان ، فقد درجنا نحن بحيث مرج البحرين يلتقيان ، فإن منهما مخرج اللؤلؤ والمرجان » .

وما أذكره بأهله حين يقول (ص ٢٠٤) : « وهي زبدة الشعر وخلاصته — يريد الموشحات — وخلاصة جوهره وصفوته ، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضيء المشرق » .

هذا هو قلب ابن دحية الخالص لوطنه ، وهو الذي حرَّكه من غير شك لأن يشير في مقدمته في تصريح أو غير تصريح ، فزى أن « الكامل » هو الأمر أو الطالب ، وأن ابن دحية بعدها هو المحيَّب إلى رغبة السلطان على شرط مشروط ، وهو أن يكون الكتاب خالصاً لكل أندلسي ومغربي .

وما أمر السلطان ولا رغب، ولكنه ابن دحية سفير الغرب إلى الشرق، نشأ وفي نفسه أن المشاركة لأهله ظالمون، وكأنه لقي في تطوافه ما زاده دليلاً وملاًه يقيناً. وهو الوطني الذي لم ينس وطناً بوطن، ولا أهلاً بأهل، مع سابغ نعمة، وموفور رعاية. فشمّر يؤلف هذا الكتاب. وفي ظني أنه كان لهذا الغرض الوطني النبيل في نفسه.

ولا يدفع هذا الظن أن الرجل ذو علم أندلسي مغربي، فهو يغرف من بجره. وأن في تكليفه بمثله غير عناء وإعنات: ولكنها نحسون أما قضاها هناك: لأندلس والمغرب منها سنو صباه وطفولته، ومثلها إلا قليلاً قضاها بالمشرق، مع كمال عقل وحسن استعداد؛ وقد عاشر هنا فأطال، ولقي العلماء وتحدث إليهم، وسمع فأكثر. فما أفاده هناك أفاد مثله هنا. ولكنه أراد النصفة فحققها بهذا الإيراد الخالص لأهله، وأكدها ثانياً بالمفاضلة يسوقها والرأي يدلي به.

هذا هو كتاب المطرب فيما أرى مؤلفه وضعه له. وما أعيب عليه ما أتمناه لكل موطن. وإنه لنهج سليم إن حيط بالقصد، ولم يثرها شتاءً مفرقة.

وقد أخذ الرجل أخباراً من جمع لهم عن سابقين راوياً عن حفظ. أشار إليهم في الكثير وأغفل في القليل. وما هو بشائنه، فالعذر ملتمس، وما فاتت الإشارة إلا عبارات تدخل على محفوظ الإنسان فتضاف إليه، وكأنها منه حين تصدر عنه.

وقد جاء في كتابه بطائفة لا ينتظمها زمن، ولا تجمعها وحدة، حديثاً حراً مختاراً، فيه تعريف بجديد، أو زيادة على قديم، أو اختيار من مطول، أو تطويل لمختصر، أو تدوين لمفقود، أو توثيق لموجود. وإن جاء بعضه حديثاً معاداً أو تكررًا،

فالأدب هذا أمره؛ يقال هنا ليعاد هناك، ويُفرد مرةً ليُجمع أخرى. وهو في كُناها
 حلومُستطاب، سائغٌ غير مملول.

وقد نقل عنه المقرئ في أكثر من موضع، كما نقل عنه السيوطي.

المخطوطة :

والكتاب في نسخة يتيمة. لانعرف غيرها إلى اليوم، يحتفظ بها المتحف البريطاني
 بلندن فيما يحتفظ به من مخطوطات عربية (برقم ٦٣١)، انتهى منها كاتبها حسن بن
 محمد بن جعفر البغدادي يوم الخميس ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين
 ومائة. أي بعد وفاة المؤلف بنحو من ستة عشر عاماً. وعن هذه المخطوطة مصورة
 دار الكتب المصرية التي نشرنا عنها الكتاب، والأرقام التي في هامش المطبوعة
 تذكر لك عدد لوحاتها، واختلافها حين تختلف يحدثك باضطراب اللوحات في ذلك
 المكان، قبل أن نسويها.

وقد كنت أشير على زميلي أن ندع هذه المصورة الوحيدة جانباً، لأنها لم تُرَزق
 نداءً. ثم أخذتُ برأيهما حين وجدتُ أن نصوصها المستعاة، من مراجع موجودة تكاد
 تُغني عن الأنداد؛ وما بقي فالخطب في تصويبه يسير.

ولكن هذا وذاك لا يرزقنا اليقين بأن الكتاب سليم في جملته، لم يُصَبِّ بأقْطاع،
 أو تعرَّض لمحنة من تلك المحن الكثيرة التي تُمنى بها المخطوطات.

ونكاد نشك أن المخطوطة تنقص شيئاً، وتضطرب في شيء آخر. يقربنا من أولها
 ما نرى المقرئ يذكر أنه نقله عن ابن دحية—ونظن أنه من المطرب— ثم لا نجد

فيه—أى فى المطرب—من ذلك حديثه عن أبى بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور السلمى ؛ وهو ممن ذكرهم « ابن دحية » فى « المطرب » .

يقول المقرئ (٤ : ٦ : ٣٠) : « وقال أبو الخطاب بن دحية : دخلت على الوزير الفقيه الأجل أبى بكر عبد الرحمن محمد بن مغاور السلمى . فوقع الكلام فى علوم لم تكن من جنس فنونه ؛ فقال بديها :

أيها العالم أدركنى سماحا	فلهثلى يحق منك السماح
إن تخلى إذا نطقت عيا	فبنانى إذا كتبت وقاح
أحرز الشأو فى نظام ونثر	ثم أثنى وفى العنان جماح
فهزل كما تأود غصن	وبجد كما تهر الصفاح «

وقال : « دخلت عليه منزله بشاطبة فى اليوم الذى توفى فيه وهو يوجد بنفسه ؛

فأنشد بديها :

أيها الواقف اعتبارا بقبرى	استمع فيه قول عظمى الرميم
أودعونى بطن الضريح وخافوا	من ذنوب كاومها بأديمى
ودعونى بما كتبت رهينا	غلق الرهن عند مولى كريم «

فهذا كله يكاد يكون متما لحديث ابن مغاور فى المطرب ، ويكاد يكون نقل المقرئ عنه ، ولكن حرفاً منه لم يرد فى مخطوطتنا .

وشىء ثانٍ إلا أنه أقطع فى الحجة ، فالمقرئ فيه جد صريح حين يقول (٦ : ٢٧) :

« وذكرها — أى مریم بنت أبى يعقوب الأنصارى — ابن دحية « فى المطرب » وقال : إنها أديبة شاعرة مشهورة . وكانت تعلم النساء الأدب ، وتحتشم لدينها وفضلها . وعمرت عمرا طويلا . سكنت إشبيلية ؛ واشتهرت بها بعد الأربعمائة .»

وما فى المطرب شى من هذا . وكان صاحبة الحديث سقطت منه بحديثها .
فهذا أو ذاك ، من النقص الذى فرضناه ، ثم تيقناه ثانيا فيما ساقه المقرئ
عن مريم بنت أبى يعقوب ، مصرحا بأنه عن « المطرب » يدل على ما ذهبت به
الأيام من هذا الكتاب .

أما الاضطراب فدليلة تجمله النسخة، وقد أشرنا إليه فى ص (١٩٥) من الكتاب
عندما عادت المخطوطة لذكر « البتئى » وكانت سبقت إلى ذلك (ص ١٢٤) .

اسم الكتاب :

ولا ندرى أتسميته الكتاب من تسميته للأولف ؛ أو هى شىء غيرها . فقد
جعل « المطرب فى أشعار أهل المغرب » ولم يكتبه كما صوره حاجى خليفة
« المطرب من ... » وما نظن هذا الأخير ابتداعها .

ونقف عند هاتين يثنى سوء الظن بالناسخ عن اعتماد ما كتب ويميل بنا الميل
إلى ما ذهب إليه حاجى خليفة، لأن كلام المؤلف فى تصديره يكاد يملئ فيه العنوان
« بمن » التى هى بالسياق أليق .

وفما أنت بين سبيلين لاتدرى أيهما تأخذ ؛ إذا « ثبت نهاية السؤل » يطالعك
بغير هذا وذاك ؛ ويسمى الكتاب « العرب فى أشعار أهل المغرب » .

وتسكت المراجع جملة عن ذكر هذا الكتاب باسمه ، إلا « المقرئ »
و « السيوطى » فيذكرانه ولكنهما لا يزيدان عن تقديمه باسم « المطرب » . كلمة
واحدة لا يذكران معها سيئا .

وقد أردناه كما أراد « حاجى خليفة ظنا منا بعثوره على منقولة نقل عنها ؛
ولأن سياق المؤلف فى تصديره يعضده وأطرحنا ماتجمله النسخة ؛ لأن الناسخ - كما
قلنا - لم يجعنا على الثقة به .

والنسخة بعد هذا ، وإن وضع خطها وجادت حروفها نوعاً ما ، لا تزكّي الكاتب ولا تسمه بفهم . وما أكثر ما حكى راسماً ؛ ونقل مُصَوِّراً . وهو على قرب عهده بالمؤلف ، يكتب اسمه فيخطيء ، فبجعله « عمر بن علي بن حسن » وسواء أكانت له أم لسابق سبقه ، فهي دالة عليه . وقد نُحَسِنُ فعندنا مما يسبق به القلم ؛ وحسبه غيرهما مما في الكتاب من هنات^(١) .

وبعد :

فها هو ذا المطرب منشورا ، أردنا به النفع ، وبذلنا فيه ما وسعنا من جهد ، وما هو إلا ركن أقمناه ؛ فإن سلم على الزمن فحمدا ، وإن جدّ عليه جديد فما أكثرنا له حمداً والمرء قد يصيب وقد يخطئ ، والغرض أوسع من أن يحاط به ، والهدف أبعد على الرامين ، فلا أقل من كلمة مع التوفيق ، وإعذار على ما فات .

ولى زميلان نصبا معي وما قصراً ، وكان للزميل الدكتور حامد عبد المجيد ، بعد جولاته الموفقة معنا في تحقيق النص وتحريره وتوجيهه ، جولة أخرى انفرد بها ، وهي إعداد الفهرس الشامل للكتاب ، وما هو بالجهد القليل !

ثم ما أظننا بما عملنا إلا أنصفنا أبا الخطاب فيما هدف إليه ، فقد ألف هذا الكتاب ليشيع بين الناس فيعرفوا لقومه ما عرف ، ويؤمنوا معه أنهم مجودون محسنون ، وأنهم جديرون بنظرة عادلة لا تغمطهم حقاً ، ولا تسلبهم فضلاً .

وختاماً

فيألى أب النهضة الأءبية-الءكءورطه ءسفن - ومنه الرأى ، وعنه التوءبفه ،
رد عملنا ، بعد ما أسءنى فهف ؛ وشجع علفه ، لفظمن قلبه على ءراء للعرب أءفر
عنده ، فرجو بعءه ، وففغى بآه .

والله ءعالى ولفنا وولفه ، ففما أردناه وأراء . منه العون وإلفه ءوففق ما

إبراهفم الالبفارى

القاهرة ءفسمبر سنة ١٩٥٤

المراجع

الذيل على الروضتين ، لأبي شامة أبي محمد
عبد الرحمن بن إسماعيل .

سير أعلام النبلاء ، للذهبي أبي عبد الله محمد
ابن أحمد .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن
العقاد الحنبلي عبد الحلي .

صلة الصلوة ، لابن الزبير أبي جعفر أحمد .

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، للعيني أبي
محمد محمود بن أحمد .

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة
السابعة بجاية ، للغبريني أبي العباس أحمد
ابن محمد .

الفلاحة والمفاوكون ، لادبلى أحمد بن علي .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،
لحاجي خليفة ابن عبد الله مصطفى .

لسان الميزان ، لابن حجر العسقلاني أحمد بن علي .

مجلد المجمع العلمى العربى بدمشق (ج ١٩ : ٢٢١)

مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلاميه

(ج ١ : ١٦١)

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، لسبط بن
الجزرى يوسف بن قير . أوغلى .

الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، لابن عبد البر
أبي عمر يوسف بن عبد الله .

الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني
أحمد بن علي .

الاعلان بالنويخ لمن ذم التاريخ ، للسخاوى
محمد بن عبد الرحمن .

البداية والنهاية ، لابن كثير اسماعيل بن عمر .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ،
للسيوطى عبد الرحمن بن أبي بكر .

تاريخ الأمم والملوك ، للطبرى أبي جعفر محمد بن
جرير .

تذكرة الحفاظ ، للذهبي أبي عبد الله محمد بن
أحمد .

التكلمة لكتاب الصلوة ، لابن الأبار أبي عبد الله
محمد بن عبد الله .

تهذيب التهذيب ، لابن حجر أحمد بن علي .

حسن المخاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،
للسيوطى عبد الرحمن بن أبي بكر .

الخطوط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط
والآثار) للقريزى أحمد بن علي .

دول الاسلام ، للذهبي ، أبي عبد الله محمد بن أحمد .

ديوان ابن عنين محمد بن نصر .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن
تغرى برد أبى المحاسن يوسف .

نفتح الطيب من غصن الأندلس ارطيب للمقرى ،
أحمد بن محمد .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن
خلكان أحمد .

مسالك الابصار في أخبار ملوك الأمصار ،
للعمرى أحمد بن يحيى .

معجم الأدباء (ارشاد الأريب الى معرفة
الأديب) لياقوت بن عبد الله الحموى .

مفرج الكروب في أخبار بين أيرب ، لابن واصل
محمد بن سالم .

النبراس في تاريخ خلفاء بنى العباس ، لابن دحية .